

## المدائح النبوية في الشعر الشعبي الجزائري

الأستاذ : عبد اللطيف حني

قسم الآداب و اللغة العربية

كلية الآداب و اللغات

جامعة الطارف (الجزائر)

### ملخص:

### Abstract :

*This contribution attempts to study the phenomenon for as long as we have noted hesitate to folk poetry Algerian namely praise of the Prophet, was organized by most popular poets in this issue associated with the religion of Islam, trying to detect the tendency of religious folk poetry Algerian linked to it in most of the topics of systems and detail on the themes of praise of the Prophet aesthetic art The expression that through which poets love for a person of the Prophet*

يسعى هذا المقال إلى دراسة ظاهرة لطالما لاحظناها تتردد في الشعر الشعبي الجزائري ألا وهي المدائح النبوية، فقد نظم أغلب الشعراء الشعبيين في هذا الموضوع المرتبط بالدين الإسلامي، محاولين كشف النزعة الدينية في الشعر الشعبي الجزائري وارتباطه بها في جل موضوعات النظم والتفصيل في موضوعات المدائح النبوية وجمالياتها الفنية والتعبيرية التي عبر من خلالها الشعراء على حبهم لشخص النبي (ص)

## 1- التوجه الديني للشعر الشعبي الجزائري :

استمد الشعر الشعبي الجزائري من الدين الإسلامي موضوعاته وأساليبه الفنية، ويعود ذلك إلى النشأة الدينية للشعراء الشعبيين، فقد تعلموا وتكونوا في الزوايا بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وشبوا على مختلف التقاليد الإسلامية، مما ساهم بشكل كبير في تعلمهم آداب وعلوم اللغة العربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى محنة الاستعمار التي حركت قرائح الشعراء وأجبت عواطفهم الدينية، فنظروا للمستعمر الفرنسي نظرة الغازي الغاصب، فاتخذوا من التاريخ الإسلامي وأحداثه مرجعا لحديثهم واعتبروه وسيلة فعالة لإقناع الناس بحتمية الجهاد وتحرير البلاد من المستعمر.

وبذلك شق الشعر الديني الجزائري طريقه وحط رحاله، وتمكن من قصائد الشعراء بفضل هذه الدوافع والنوازع، فانتشرت المدائح الدينية والمولوديات والتغني بالمناسبات الدينية المختلفة بشكل واسع، وقوى ظهور هذا الغرض الذي «سيطر على الحياة الفكرية والسياسية والفكرية والثقافية، وترك المجال مفتوحا أمام هذا اللون من الشعر، فأخذ الشعراء يلتفتون إلى عصر الرسالة يشتدون به من هذا الظلم الذي سلط عليهم، فوجدوا في المدائح الرحاب التي يمكن أن يسكنوا إليها ويطمئنون فيها، وأنشدوا تلك القصائد وكأنهم يرثون الحالة التي وصلت إليها البلاد، وهم في مدحهم للنبي (ص) إنما يبتعدون عن الواقع الذي لا يجدون فيه ما يبعث على التفاؤل، فعادوا إلى النبوة يستلهمون منها ويستجدون بها»<sup>(1)</sup>.

وقد نظم الشعراء الشعبيون القصائد في مختلف المعاني الدالة على حبهم للوطن وعبروا عن حسرتهم على الحرية المفقودة، ومقتهم للاستعمار

ورفضهم له، ولم تكن قصائدهم مجرد ترف شعري أو سد فراغ أو تسلية أو بكاء على الأطلال الحزينة وإنما هي تعبير عن الحسرة والخيبة التي تحزن قلوبهم، وتكوي أنفسهم، حيث يعبر عنها صالح خرفي بقوله: «إنه ليس بكاء على الأطلال، ولكن على الأمجاد والمواقف البطولية، بكاء على الساعات الواجمة بعد انقشاع القتام عنها، إنه حنين إلى الأبطال الذين دخلوا التاريخ...»<sup>(2)</sup>.

وقد ركز الشعر الديني الجزائري على مدح النبي (ص) وآله وصحابته، ومدح الشيوخ والأولياء الصالحين، وانقسمت هذه المدائح إلى نوعين؛ فالأول «هو ما كان امتدادا للتراث القديم في هذا الموضوع، وهو يرتبط أساسا - بالنظرة الصوفية إلى حد كبير. أما النوع الثاني فهو الذي اتخذ من مدح الرسول (ص) مبدأ الدعوة إلى النهوض واليقظة وذلك بعد أن تطورت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية، فالأول كان تعبيراً عن مرحلة حضارية عاشتها الجزائر قبل هذا القرن، وكان الدين فيها قد أصبح هو القوة الوحيدة التي بقيت للناس في حياتهم، أما النوع الثاني فكان تعبيراً عن مرحلة حضارية جديدة انتقلت إليها الجزائر للظروف التي تحدثنا عنها سابقاً»<sup>(3)</sup>.

لذلك اتخذ الشعر الشعبي الديني الجزائري من الابتهاال والاستعانة بالله تعالى ومدح النبي (ص) والشيوخ والأولياء الصالحين موضوعات لقصائده، وأصبح الشاعر الشعبي يبيث نظرتة ووعيه الفلسفي عبر مدائحه متأثراً في ذلك بالثقافة الدينية المتداولة في المساجد والزوايا، والتي أخذها من محيطه وشيوخه والطرق المنتشرة في الجزائر، لذلك فالشعراء الذين ظهوروا في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر هم من الصوفية ونذكر منهم عبد العزيز

المغراوي، الحاج عيسى لغواطي، عبد القادر الزرهوني، عبد الرحمان المجدوب، الحاج مبارك بولطباق، سيدي أحمد لغارابلي، عبد القادر بلوهراني، سيدي أمحمد بن عوده<sup>(4)</sup> وغيرهم من الشعراء الذين نظموا المديح النبوي والوعظ والإرشاد ومدح الأولياء الصالحين، حتى وإن لم يشتهروا بوصفهم صوفية، فقصائدهم مثقلة بالنظرات الصوفية وملبئة بمصطلحاتها، رغم بساطة طرحها و تناولها لكنها تبقى مبسطة من الشعراء لكي يفهمها المتلقي ويتفاعل معها، كما نلاحظ أن بعض الشعراء كان فهمهم للصوفية سطحيًا فحاضوا في هذا المجال بما أتيح لهم من معرفة وعلم في حياتهم.

## 2- المديح النبوي في الشعر العربي المفهوم والنشأة :

يعتبر المديح النبوي فناً من فنون الشعر التي نشرها التصوف وساهم في إذكائها، وهو لون «من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنه يصدر عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»<sup>(5)</sup> تنبض بحب النبي (ص) وبتعداد صفاته الخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره، كما يهتم هذا الشعر بذكر معجزاته المادية والمعنوية، والإشادة بغزواته وصفاته المثلى، والإكثار من الصلاة والسلام عليه تقديراً وتعظيماً، وطلب الأجر من الله عز وجل بالثناء عليه (ص).

وغالبا ما يجتهد الشاعر الشعبي المادح لإظهار تقصيره في أداء واجباته الدينية والدينيوية، كما يذكر آثامه وسيئاته وكثرة ذنوبه في الدنيا معترفاً بها، ومظهراً كل مستتر، ثم يناجي الله تعالى بصدق وشوق راجياً منه التوبة والمغفرة، وينتقل بعد ذلك إلى الرسول (ص) طامعاً في وساطته وشفاعته يوم القيامة، ومتوسلاً بأسمائه وصفاته التي عرف بها.

ويتميز المديح النبوي بالصدق والإخلاص والنقاء من كل شائبة، والخلو من كل ظن ويختلف تماما عن المدح التكسبي أو المدح التملقي الموجه للأشخاص والأعيان والأمراء والملوك، لأنه مدح خاص لأفضل خلق الله وأحسنهم على الإطلاق سيدنا محمد (ص)، فهو معبأ بالصدق والوفاء والمحبة، تغمره التجربة الروحية والعشق لشخصه الكريم، فحبه من العقيدة وواجب على كل مسلم.

وقد لاح نور المديح النبوي مبكرا في المشرق العربي، وذاع وانتشر بانطلاق وشيوع الدعوة الإسلامية، وكثر في شعر الفتوحات الإسلامية، حتى ربط خيوطه وامتزج بالشعر الصوفي مع ابن الفارض والشريف الرضي، اللذين حملا على عاتقهما الإشادة بهذا الفن والإحاطة به «ولكن المديح النبوي لم ينتعش ويزدهر، ولم يترك بصماته إلا مع الشعراء المتأخرين وخاصة مع الشاعر البوصيري في القرن السابع الهجري الذي عارضه كثير من الشعراء الذين جاءوا بعده، ولا ننسى في هذا المضمار الشعراء المغاربة والأندلسيين الذين كان لهم باع كبير في المديح النبوي عند الدولة المرينية»<sup>(6)</sup>.

غير أن الاختلاف ساد بين الباحثين حول نشأة المديح النبوي، فزكي مبارك يرجع ظهوره في المشرق العربي إلى ظهور الدعوة الإسلامية وانتشار الفتوحات الإسلامية، وذلك مع جمهور الصحابة خاصة عند شعراء الرسول (ص)؛ مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة. و يذهب عباس الجراري إلى أنه فن مستحدث جديد على البيئة الإسلامية «ولم يظهر إلا في القرن السابع الهجري مع البوصيري، وابن دقيق العيد»<sup>(7)</sup>.

ويعد القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة المنهلين للذين تستوحي منهما قصائد ودواوين المديح النبوي مادتها الإبداعية، ورؤيتها وصورها الإسلامية، كما تلتجئ إلى كتب التفسير والسيرة النبوية التي فصلت حياة الرسول (ص) تفصيلا كبيرا، ووضحت جوانب عديدة من حياته وسيرته (ص) «كما يظهر ذلك جليا في تفسير ابن كثير على سبيل التمثيل، تليه كتب السيرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي كتبت حول سيرة الرسول (ص)، سواء أكانت قديمة أم حديثة، وأذكر على سبيل المثال السيرة النبوية لابن هشام، وسيرة ابن إسحاق، والرحيق المختوم لصفي الرحمان، والسيرة النبوية لابن الحسن البدوي، والسيرة النبوية لابن جنان، والوفاء لأبي الفرج عبد الرحمان الجوزي، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض»<sup>(8)</sup>.

ويعد ما قاله عبد المطلب عم النبي (ص) حين ولادته (ص) أول ظهور لشعر المديح النبوي، حيث شبه ولادته الشريفة بالنور والإشراق الذي أثار الكون وملاً الآفاق سعادة وفرحا وبهاء، حيث يقول:<sup>(9)</sup>

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ      الأَرْضَ وَضَاعْتَ بِنُورِكَ الْأَفْقَ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِيَاءِ وَفِي      النُّورِ وَسَبَلَ الرَّشَادِ تَحْتَرِقُ

ويعتبر حسان بن ثابت (ض) رائد المدح النبوي، الذي أحب ودافع عن الرسول(ص)، وامتلاً ديوانه بعيون قصائد المديح، وجاء بعده شعراء على مر العصور الأدبية اهتموا بهذا الفن، ونظموا في مضماره الكثير من القصائد التي تترجم حبهم وعشقهم بشخص النبي، وتعكس قيمته في نفوسهم.

### 3- موضوعات المديح النبوي في الشعر الشعبي الجزائري :

حفلت دواوين الشعراء الشعبيين بمدح النبي(ص) والإشادة برسالته العالمية السامية كما وصفوا جماله الخلقى وحسن جماله الذي سحر العقول، وحاول الشاعر ترسيخ حب النبي(ص) في قلوب الناس وشد نفوسهم إلى السنة النبوية الشريفة، ويمكننا أن نرصد جملة من الموضوعات تمحورت في المديح النبوي وهي:

### 1- الشوق للنبي(ص):

أفصح الشعراء عن شوقهم لزيارة قبر النبي وحاولوا استظهار مشاعرهم الطيبة السامية أمام هذا الموقف الرهيب، مظهرين حبهم وعشقهم لشخص النبي(ص)، فقد أفنى ذواتهم البعاد والفراق، وأرهقت نوائب الدهر نفوسهم، وهو في حاجة للحظة البوح والاعتراف بالذنوب أمام سيد الخلق أجمعين، والتضرع لله تعالى أن يغفر تقصيرهم وإسرافهم على أنفسهم وهذا ما يظهر جليا في قول الشاعر ابن التريكي<sup>(10)</sup> في قصيدة "دمعي سكيب" التي جاء في مطلعها:<sup>(11)</sup>

دَمْعِي سَكَيْبٌ      وَالنَّارُ فَأَكْبَادِي  
يَا شَمْسُ الْمَغِيبِ      سَلِّمْ عَلَيَّ الْهَادِي

فالشاعر يرسل سلامه وشوقه للهادي(ص) مع شمس المغيب التي ستسافر إلى الرحاب القدسية وستلقي بأنوارها على الروضة المحمدية، وما يظهر حرقة الشاعر هو دمعه الجاري ونيران قلبه المشتعلة، ويواصل ابن التريكي إرسال سلامه للنبي(ص) فيقول:<sup>(12)</sup>

أَقْرَأُ السَّلَامَ      لِسَيِّدِي الْأَمَا  
تَاجَ الْكَرَامِ      خَلْقُوا إِلَهَ رَحْمَا

## فِي يَوْمِ الزَّحَامِ      يَجْعَلُ لَنَا حُرْمًا

فالشاعر يشيد بالرسول (ص) فهو سيد الأمة وقائدها وحببيها، جاء رحمة للناس أجمعين، والشفيع المشفع يوم القيامة، فعلى كل بشر أن يحبه ويعشقه بعد الله تعالى: (13)

طَهَ الْحَبِيبُ      هُوَ غَايَةُ أَمْرَادِي  
يَأْشَمُّسُ الْمَغِيبُ      سَلَّمَ عَلَيَّ الْهَادِي

ويفصح الشاعر ابن مسايب<sup>(14)</sup> عن شوقه المتأجج لزيارة النبي (ص) متجاهلا طول المسافة وأهوال الطريق ومتاعبه، فهي في نظره هينة من أجل الحبيب، حيث يقول: (15)

لَوْصَبْتُ نَمْشِي لَهُ زَايِرٌ      لَعَنْدُهُ تَزْوُلُ أَحْزَانِي  
لَوْ جَبَرْتُ مَعَ الرَّجَالِ      نَشُوفُ الْحَبِيبِ مَنْ وَلَا نِي  
لَوْ كَانَ قَلْبِي دِيمًا صَانِكٌ      أَنَا ضَحِيْتُ تَحْتَ عَلَامِكُ

كما يرى الشاعر أن الطبيب لأمرضه التي طال أمدها هو الزيارة التي ستشفي نفسه وتبرأ سقمه، وتأنس غربته وتبير ظلمات حياته، وهذا وما يظهر في قوله: (16)

طَالَ الضُّرُّ وَ لَا لِي طَبِيبٌ      نَتَوَحَّشُ خِيَالَ الْحَبِيبِ  
بَاقِي هَا يَمُّ وَ حَدِي غَرِيبٌ      مَا وَ لِي شَيْءٌ لِيَّا  
مَنْ نَهَوَاهَا لَرَاهَا مَشَاتٌ      لَا كَنْ بَالَا سَبَّه  
نَطْلَبُكَ يَا رَبِّي لِحَنَيْنِ      رَأَيْتِي مَنْ ذَا الْغَدَرِ مَكِينِ

من خلال هذه الأبيات نلاحظ تعلق الشاعر الشعبي الجزائري للأماكن المقدسة خاصة الروضة المحمدية والكعبة المشرفة، «وقد يبدأ الشاعر



بالشوق لمكان الرسالة، وهي عادة المدينة لأسباب معروفة لينطلق منها إلى تصوير هذا الجمال وإظهار مكانة صاحبه»<sup>(17)</sup>، ويسمو بتعابيره وأساليبه إلى التغزل بهما ويرمز إليهما بالمرأة في جمالها وحسنها وكثافة المشاعر المحبة الغرامية لهما وهذا ما نجده متكرر في قصائد أغلب الشعراء.

ويتعدى الشوق عند ابن مسايب إلى دعاء المولى عزوجل أن يمنحه الصبر ويقويه على تحمل هذا البعاد إلى أن يحضر أجله ليدخل مع النبي(ص) إلى الجنة مع المحبين والعاشقين والمؤمنين الطاهرين الطيبين، حيث يقول:<sup>(18)</sup>

يَا لَهِ صَبْرْتِي حَتَّى يَجِيَّ أَجْلِي نَلْتَقَ بِالرَّسُولِ وَ نَدْخُلُ مَدْخُلَهُ

ويبدو الشاعر ابن مسايب جلدا في مداومة الصبر للقاء الرسول(ص)، والمحافظة على الشوق في نفسه، مبقيا الأمانى في قلبه الذي لا ينسى أبدا الحبيب مهما طال زمن اللقاء ولحظة النظر إلى البدر المنير، فالشاعر متعلق بشخص النبي متشوق له مستعذب هواه، حيث يقول:<sup>(19)</sup>

طُولُ الدَّهْرِ نَرْجَاكَ وَ تَمَنَّا نَقَاكَ  
كَيْفَ القَلْبِ يَنْسَاكَ يَا ضِيَاءَ عَيْنِي يَا بَدْرَ التَّمَامِ  
مَنْ لَأَذَاقُ هَوَاكَ وَأَشْ جَرَبَ فِي الدُّنْيَا مَنْ أَحْكَامِ

ولا يتوانى الشاعر الشعبي ابن التريكي على الوقوف على الأطلال يسائلها نقل شوقه وسلامه للحبيب وأهله وقومه (عرب نجد)، ويحمل دموعه وحبه وعشقه للديار المحمدية الحادي وإبله، علمهم يروحون عنه قليلا وينقلون جزءاً يسيرا من الأشواق والحب، فيقول:<sup>(20)</sup>

نَلْتُ المُرَامِ بِاللهِ حَادِي القَطَارِ

قَفْ بِتَنِّكَ الدِّيَارُ      وَ أَقْرَأَ السَّلَامُ  
 سَلَّمَ عَلَيَّ عَرَبُ نَجْدٍ      وَأَذْكَرُ صَبَابَتِي وَوَجْدِي  
 كَيْفَ يُلَامُ      مَنْ بَادَرَ الدُّمُوعَ  
 شَوْقًا لَتَنِّكَ الرُّبُوعَ      الْمَمَقَامُ

ويؤكد الشاعر على الحادي أن يبلغ سلامه وشوقه لساكني الحرم والمدينة المنورة بشكل دائم، وهذا ما يظهر تعلق الشاعر الشعبي بالأماكن المقدسة تعلقا نفسيا ويعدّ نفسه ناقصة تستكمل بالزيارة ورؤية قبر الحبيب والطواف بالكعبة المشرفة، وهي نظرة العوام من الناس عن طريق الحج فهم يسعون إلى استكمال هذا الركن المهم في دينهم وفي حياتهم ويسترخسون في سبيله كل غال مهما كان وهذا ما يظهر في قول الشاعر: (21)

وَقُلْ لِعَرَبٍ جِيَادُ      سَكْنَاهُمْ فِي فُؤَادِي  
 نَكَّرَ الْخِيَامَ      مَعَ سَاكِنِينَ الْخِيَامِ  
 وَالْبَانَ ثُمَّ الْأَعْلَامَ      أَصْلَ الْغَرَامِ  
 بَلَغَ سَلَامًا كَثِيرًا      عَشِيَّةً وَبُكُورًا  
 مِنْ مُسْتَهَامَ      مَنْ ذَكَرُوا وَأَذَّ الْعَفِيقُ  
 أَدْمَعُهُمْ مُنْدَقُ      لَهَا أَنْسِجَامُ  
 مَا أَحْسَنَ الْقُرْبِ مِنْهُمْ      وَأَفْبَحَ الْبُعْدِ عَنْهُمْ  
 نَرَعَى مَقَامَ      سُكَانَ ذَاكَ الْحِجَازِ  
 هُمْ سَادَتُنَا الْعِرَازُ      هَمَّ الْوُسَامِ

2- الصلاة والسلام على النبي(ص) :

اهتم الشعراء الشعبيون في دواوينهم بالإكثار من الصلاة والسلام على النبي (ص)، لعلمهم بقيمتها عند الله تعالى في نفوسهم وعند المؤمنين، فلم تخل قصيدة من ذكر الصلاة والسلام عليه في بدايتها ونهايتها، فقد تتسم القصيد، بذكر خير العباد وأفضلهم.

ويجتهد الشاعر المنداسي<sup>(22)</sup> في الصلاة والسلام على الحبيب امتثالاً لله تعالى الذي يأمرنا بالصلاة والسلام عليه في كل وقت وحين لنيل الحسنات والبركات حيث يقول عزوجل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)<sup>(23)</sup>، وفي ذلك يقول المنداسي:<sup>(24)</sup>

وَالسَّلَامَ عَلَى الْهَادِي مَا تَرَاكُمُ الْقَوْلَ مَنْ كُنُوزَ عَلَى الْقَوْمِ الضَّالَّةِ خَوَافِي  
مَنْ عَلَيْهِ اللهُ صَلَّى فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ قَبْلَ كَوْنِ الْكُونِ وَلَا كَانَ كَوْنُ قَبْلُهُ

كما يدرج الشاعر المنداسي الصلاة والسلام على الرسول (ص) في تضرعه لله تعالى ودعائه بأن يغفر ذنوبه وإسرافه في أمره ويرضى عنه ويلحقه بزمرة صحب محمد(ص)، طالبا من الله تعالى أن يشفع فيه الرسول ليدخل الجنة، فيقول:<sup>(25)</sup>

يَا آمَنَ الرَّوْعُ فَلَا لِي حَيْلُهُ	يَوْمٌ لَا تَغْنِي عَنِ الْمَرُوءِ الْحَيْلُ
يَا حَبِيبُ اللهِ حَضِي فِي الرَّضَى	إِنْ لِي بِالْبَابِ نَحْبٌ وَحَقَائِلُ
فَانْتَظَرْتُ إِنْ دُنُوبِي كَثُرَتْ	وَقُلْ عَزَمِي بِالْخَطَايَا وَ الْكَسَلُ
مَا لِدُنُوبِي عَنِ تَجَلُّي فَضْلَكُمْ	يَا رَسُولَ اللهِ لَعَبْدٌ حَاصِلُ
صَلِّ يَا رَبِّي عَلَى مَنْ بِاسْمِهِ	يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعَبْدِ الْعَمَلُ

ويثني المنداسي على قيمة الصلاة والسلام على الرسول فيها تقبل الأعمال وتبارك الدعوات، ويتقرب بها العبد لله تعالى ويسمو في الدرجات،

وتظهر بها النفوس، فحب النبي واجب على كل مسلم، بها يحسن عمله ويقبل عند الله: (26)

عَلَيْكَ صَلَّى اللَّهُ يَا مَفْتَاخَ كُلِّ بَابٍ يَا الَّذِي بَعَثَكَ اللَّهُ الْكُلَّ دَاءً طَبِيبُ  
الصَّلَاةِ عَلَيْكَ وَ لِأَصْحَابِكَ الْبُدُورُ وَالرُّضَى عَنْ شَافُوا وَجْهَكَ الْحُسَيْنِ

ويشيد الشاعر الأخضر بن خلوف<sup>(27)</sup> بمكانة وقيمة الرسول (ص) في الدنيا والآخرة، فقد خلق الله تعالى الدنيا بكل موجوداتها إكراما لمحمد، وكلها تصلي وتسلم عليه طاعة وامتنالا لله تعالى في سكونها وحركتها في رواحها وغدوها، حيث يقول الشاعر: (28)

لَوْلَا أَنْتَ لَا كَانَ خَلْقَنَا مِنْ تُرَابٍ      وَفِيهِ بِالصَّحِّ نَرْجِعُوا بِالْيَمِينِ  
وَمِنْهَا الْخُرُوجُ تَارَةً لِلْحَسَابِ      يَوْمًا لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ الْعَرَبِيِّ      يَا سِرَاجَ الدَّهْرِ أَحْمَدُ الْأَمِينِ

ونلاحظ تضمين الشاعر أبياته آيات من القرآن الكريم لتأكيد كلامه(منها الخروج) وذلك من قوله تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)<sup>(29)</sup> و(لا ينفع مال... ) من قوله تعالى : (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)<sup>(30)</sup>.

كما تبنى أغلب قصائد الملحون على هذه الوتيرة في الصلاة والسلام على الرسول(ص) فجل الشعراء يشيدون بقيمة النبي(ص) وما حباه به الله تعالى في الدنيا والآخرة مستعينين بما ورد في القرآن الكريم وما جاء من أخبار في السنة الشريفة: (31)

مَفْتَاخُ خَيْرٍ لَا يَنْفَدُ      وَأَعْطَاكَ الْفَرْدُوسَ غَدَاً  
وَاخْتَرَكَ الْفَرْدُ الصَّمَدَ      وَأَهْدَاكَ مَآكِنَا لَا يَهْدَا

يَا سَيِّدَ الْأُمَّةِ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ لَبَدًا

ويستعين الشاعر ابن التريكي بالصلاة والسلام على الرسول (ص) للتغلب على الأمراض والأسقام التي اكتسحت جسده وأفنت جهده، فقد أضناه الألم والتعب، ولا معين إلا الله تعالى، فهو يدعو ويترجاه بالصلاة والسلام على حبيبه، حيث يقول: (32)

صَلُّوا عَلَيَّ مُحَمَّدُ الْمُخْتَارِ  
تَاجُ الْعُلَى سُلْطَانُ كُلِّ أَقْمَارِ  
بِهِ يَنْجَلِي عَنِّي جَمِيعُ الْأَغْيَارِ

ويبين الشاعر تفرد الرسول (ص) بالصلاة والسلام عليه، وكذلك الجمال الخلفي فما له شبيهه فقد شرفه الله بأفضل جمال على وجه البسيطة، وشرفه بإمامة الأنبياء والمرسلين، كما يتمنى الشاعر أن يجزيه الله عن مديحه خير الجزاء بأن ينظر إلى محمد (ص) ويكون برفقته في جنان الخلد: (33)

صَلُّوا عَلَيَّ مَا دَامَتِ الدُّنْيَا  
مَالُوا شَبِيهَ سُلْطَانِ الْأَتْبِيَا  
لَوْ صُبَّتْ فِيهِ نَنْظَرُ أَبْعَيْنِيَا

ويفتتح الشاعر تونسي قويدر (34) قصيدته بالصلاة على النبي تيمنا وتيركا بها، مناجيا فيها الحبيب (ص) ومثليا على قدره وقيمته الرفيعة عند المولى عز وجل فيقول: (35)

صَلُّوا صَلُّوا عَلَيَّ النَّبِيِّ الْهَادِي  
مُحَمَّدَ شَفِيعَنَا فِي الْهَوَى  
رَسُولَ اللَّهِ نُورَ أَثْمَادِي  
بَابًا فَطِيمَةً مَعَ الْبَتُولِ  
اسْمَكَ إِلَهَ بَيْنَهَا بَادِي  
عَلَيَّ عَبْدَ اللَّهِ نَجِيبَ الْقَوْلِ

## 3-التغني بجمال النبي (ص) :

اعتنى الشعراء الشعبيون في قصائدهم بوصف النبي (ص)، وسرد سيرته العطرة للناس من خلال أخلاقه وصفاته الكريمة الطيبة، وقد اجتهدوا في الثناء عليه(ص)، إذ نلمس صدق عاطفتهم وجمال إحساسهم وقوة إيمانهم ومدى تعلقهم بالنبي (ص)، ويظهر ذلك في إشادة الشاعر المنداسي بحسنه(ص)، حيث يقول:<sup>(36)</sup>

مَا رَأَيْتُ حُسْنَ سَطَى مَثْلَهُ فِي الْوَرَى مَن حُسْنُهُ الْحَسَنَ أَكْتَمَلُ

فالمنداسي يسمو بجمال النبي(ص) فهو قد اكتمل حسنا وبهاء، ولم يتحلى بشر بجماله فقد كرمه الله تعالى بذلك، والشاعر ينطلق من مرجعية دينية في وصفه، ويظهر ذلك في قوله:<sup>(37)</sup>

فَالرُّسُولُ الْعَرَبِيُّ أَكْرَمَ خَلْقٍ مِّنَ الرُّسُلِ مَنذُ جَاءَ الشَّرْكَ أَضْمَحَلُ  
أَحْمَدُ الْمَبْعُوثِ فِينَا رَحْمَةً خَبْرُهُ مَن قَامَ بِالْحَقِّ وَكَفَلُ

كما يحدثنا المنداسي عن معجزات النبي(ص) مشيدا بها وخاصة الإسراء والمعراج التي كرم بها الله تعالى حبيبه محمدا(ص)، متخذاً منها وسيلة لإبراز مكانة النبي وقدره ومعلما الناس قيمة هذه الحادثة في مسار الدعوة الإسلامية والتي أيدها المولى عزوجل، حيث يقول:<sup>(38)</sup>

أَمْتَطَى مَتْنُ الْجَوَادِ لِلْعَلَاءِ خَافَقَا كَالْبَرْقِ لِلْوَصْلِ ارْتَحَلُ  
يَتَلَقَى الْقَوْلَ مَن عَرَجَ السَّمَاءِ إِذْ سَمَى فَرْدًا مِّنَ الْإِنْسِ ابْتَلَّ  
أَسْرَى رَسُولَ اللَّهِ لَيْلًا وَارْتَقَى لِلْمُنَى يَطْوِي مَن الدَّاجِ الْكَلَّلُ

ويظهر الشاعر ابن التريكي تعلقا صارخا بحب النبي(ص) طالبا من الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء وأن يغفر زلاته ويتجاوز عن خطاياها، فقد هام بجمال خير العباد، وأفناه مداومة حبه، حيث يقول: (39)

أَنَا فَنَيْتُ	مَنْ حُبَّ سَيِّدِ الْخَلْقِ
صَاحِبِ الْحَدِيثِ	قَالَ فَأَكَلَمُوْهُ وَأَنْطَقُ
وَإِذَا خَطَيْتُ	رَبِّي بَيَّا يَرْفُقُ
لَأَنِّي لَبَيْبُ	وَأَمْوَعٌ بَأَنْشَادِي
يَا شَمْسَ الْمَغِيبِ	سَلَّمَ عَلَيَّ الْهَادِي

ويكني الشاعر عن الجمال المحمدي بلفظ "عود النوار" أي غصن من الزهر الفواح بأزكى الروائح الطيبة التي تستمد عبقها من الجنة، فيقول: (40)

عُودُ النَّوَارِ	يَا مَنْ فَاهَمَ الْأَقْوَالَ
دُونَ اخْتِيَارِ	وَابْنِ التَّرِيكِي قَالَ
فِي بَلَدِ الْجِدَارِ	نَشْدِي عَلَيْهِ أَوْسَالَ

ويجتهد الشاعر ابن خلوف في رصف الكلمات والمعاني المعبرة عن حبه للنبي(ص)، ويحشد مختلف الصور التي توضح صفاته وأخلاقه وقيمته عند الله، وعند الخلق أجمعين، جامعا للمصطفى (ص) من الطبيعة وجمالها كل حسن لكي يصفه به، «فجمال الرسول(ص) في هذا الشعر يستمد صورته ومعانيه من السيرة النبوية، ومما ذكره السابقون في هذا المجال، بل هو تقليد بما وصفه به شعراء الفصحى، ويبدو هذا في بعض القصائد التي تعرض لهذه الناحية، وهي وإن كانت قليلة غير أنها تمزج بين أشياء كثيرة من بينها وصف هذا الجمال» (41)، حيث يقول: (42)

يَا ضَمَارَ الْعِدَاءِ فِي يَوْمِ الْمَيْدَانِ

يَوْمِ الطَّرَادِ وَالْمَشَالِيَةِ<sup>(43)</sup>

يَا سَيِّدَ مَنْ تَحَزَمَ فِي رِبْعِ أَرْكَانِ

وَتَخُومِ الْأَرْضِ وَالْعَالِيَةِ

يَا سَابِغَ الشَّقَرِ يَا دَاعِجَ الْأَعْيَانِ

يَا ذُوَ الْمُحَاسِنِ الْبَاهِيَةِ

يَا زَيْنَ الْإِسْمِ يَا مَفْلِجَ الْأَسْنَانِ

يَاوَلَدَ يَأْمَنَةَ السَّعْدِيَّةِ

يَا سَعْدَ مَنْ يَصَلِّي عَنْكَ مَضْمَانِ

مَأْوَاهُ جَنَّةُ الْأَثَقِيَّةِ

مَنْ لَا عَلَيْكَ صَلَّى يَبْقَى حَيْرَانَ

يَوْمِ الْأَهْوَالِ وَالْهَأْوِيَّةِ

ويعمل الشاعر في قصيدته المدحية للنبي (ص) على «المزج بين تصوير

الأخلاق والجمال معا معرجا على وصف أخلاقه مما ينجر عنه العلم، مكررا

ما ذكره من قبل، كما أنه يتبع الأقدمين في وصف العين والحاجب والأنف

والجبين إلى آخر ما هو معروف»<sup>(44)</sup>، حيث يقول:<sup>(45)</sup>

بَاهِي الصِّيفَةِ زَيْنَ الزَّيْنِ طُبَّ جَمَيْعِ الْأَدَايَةِ<sup>(46)</sup>

طَبَّ الْبُلَاءِ وَالْأَبْكَامِ سَيِّدِ الْعَرَبِ وَالْعَجَامِ

مُحَمَّدَ خَيْرِ الْأَتَامِ مَنْ بِهِ انْبَرَزَتِ الْأَشْيَاءُ

بَرَزَتِ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْعَدَمِ سَابِقَ نُورُهُ فِي الْقَدَمِ

حَبِيبِ الْحَقِّ الدَّائِمِ سُبْحَانَهُ مُوَلَّيْنَا



سُبْحَانَهُ إِلَهَ الْقَادِرِ أَخْلَقَ وَفَرَّقَ وَخَيَّرَ  
مَنْ رَبِّيعَةً وَ مُضَرَ قَرِزَةً وَفَرَّقَ وَخَيَّرَ

وبهذا العرض البسيط حول تجربة الشعراء الشعبيين في المديح النبوي، نكون قد بسطنا فيه نظرتهم من خلال التطرق لأهم موضوعاته وتوجهاته، وطريقة تعابيرهم، حيث نجدهم قد استفاضوا في مدح الرسول (ص)، ولم يتركوا موقعا في قصائدهم إلا ووقفوا وقفة إيمانية، مسلمين عليه (ص) ومتوسلين وذاكرين صفاته وأخلاقه وأصحابه وآله، انطلاقا من الرؤية الصوفية التي نشأوا عليها في الزوايا، وتربي عليها ذوق المتلقي.

## الموامش والمراجع

- <sup>1</sup>- عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص 50.
- <sup>2</sup>- صالح خرفي : شعر المقاومة الجزائرية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، د ط، د ت، ص79.
- <sup>3</sup>- نفسه، ص 51 .
- <sup>4</sup>- ينظر: عبد اللطيف البرغوثي : القصيدة الشعبية، مجلة فلسطين الثورة، عدد خاص، الجزائر، 01-01-1981، ص 365.
- <sup>5</sup>- زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، د ت، ص17.
- <sup>6</sup>- نفسه، ص 11.
- <sup>7</sup>-عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1982، ص141.
- <sup>8</sup>-نفسه، ص 10.
- <sup>9</sup>- نفسه، ص 142.
- <sup>10</sup>- هو أحمد بن التريكي تصغير تركي ولد في أواسط القرن الحادي عشر، ونشأ في تلمسان، لقب بالزنقلي لأن أباه كان موصوفا بالغنى، يعد من فحول الشعر الملحون الجزائري، توفي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري. (ينظر: أحمد بن التريكي الملقب ابن الزنقلي : الديوان، جمع وتحقيق: عبد

الحق زريوح، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2001، ص(25).

<sup>11</sup> - أحمد بن التريكي: الديوان، ص 52.

<sup>12</sup> - نفسه، ص 52.

<sup>13</sup> - نفسه، ص 53.

<sup>14</sup> - هو أبو عبد الله الحاج محمد بن مسايب، يعد من أبرز شعراء منطقة الغرب الجزائري في القرن الحادي عشر للهجرة، من مواليد الربع الأول للقرن الثاني عشر للهجرة 12 هـ بتلمسان، توفي 1190 هـ الموافق لـ 1768م. (ينظر: ابن مسايب: الديوان: نشر محمد بخوشة، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، د ط، 1370 هـ، ص 03).

<sup>15</sup> - ابن مسايب: الديوان، ص 180، 181.

<sup>16</sup> - نفسه، ص 135.

<sup>17</sup> - عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 384.

<sup>18</sup> - نفسه، ص 120.

<sup>19</sup> - نفسه، ص 156.

<sup>20</sup> - ابن التريكي، الديوان، ص 56.

<sup>21</sup> - نفسه، ص 56.

<sup>22</sup> - هو سعيد بن عبد الله التلمساني المنشأ المنداسي (بلدة منداس بغليزان) الأصل، من فحول الشعر الملحون الجزائري عاش بتلمسان في القرن الحادي عشر الهجري، توفي سنة 1088 هـ/ 1677م. (ينظر: ديوان سعيد المنداسي) (الشعبي): تقديم و تحقيق : الأستاذ محمد بخوشة، مقدمة الديوان، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، د ط، د ت، ص 06. وينظر : ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي: تحقيق و تقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، ص 05).

<sup>23</sup>-الأحزاب، الآية : 56.

<sup>24</sup>-المنداسي : الديوان (الشعبي)، ص 5.

<sup>25</sup>-نفسه، ص 52.

<sup>26</sup>-نفسه، ص 83.

<sup>27</sup>-هو سيدي الأخضر بن خلوف من فحول الملحون في الجزائر، نشأ في ناحية مغراوة الجزائرية بمستغانم، قيل أنه ولد في أواخر ق 8 هـ، نظم الشعر الديني خاصة في المديح النبوي، توفي في أوائل القرن العاشر هجري عن عمر يناهز 125 سنة.( ينظر: لخضر بن خلوف، الديوان، تحقيق محمد الحاج الغوثي، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، د ط، د ت، ص 05).

<sup>28</sup>-لخضر بن خلوف : الديوان، ص 28.

<sup>29</sup>-طه، الآية 55.

<sup>30</sup>-الشعراء، الآية 88.

<sup>31</sup>- لخضر بن خلوف : الديوان، ص 38.

<sup>32</sup>-ابن التريكي : الديوان، ص 53.

<sup>33</sup>-نفسه، ص 54.

<sup>34</sup>- هو الشاعر قويدر تونسي ولد ببلدية البسباس التابعة لدائرة أولاد جلال بولاية بسكرة، لم يعثر على تاريخ محدد لولادته، لكن يذكر اهل منطقته أنه توفي سنة 1950 بسيدي خالد التي عاش فيها، أشتهر الشاعر بمدح شيخ

الطريقة القادرية، وخالد بن سنان وغيرهما، وما زال بعض الرواة يحفظون القليل من أشعاره.

<sup>35</sup> -القصيدة روت لنا من طرف الشاعر شبيشب محمد وهو شاعر شعبي، ولد سنة 1938 بليشانة ولاية بسكرة، حيث حفظها أثناء تنقله إلى سيدي خالد.

<sup>36</sup> -المنداسي، الديوان، ص 23.

<sup>37</sup> -نفسه، ص 23.

<sup>38</sup> -نفسه، ص 25.

<sup>39</sup> -ابن التريكي : الديوان، 54 - 55.

<sup>40</sup> -نفسه، 55.

<sup>41</sup> -عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري، ص 384.

<sup>42</sup> -ابن خلوف : الديوان، ص 31.

<sup>43</sup> - ضمار العداء: مضمرة الأعداء أي قاهرهم وهازمهم، الطراد والمشالية: يوم الحرب والنفير.

<sup>44</sup> - عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري ، ص 387.

<sup>45</sup> - ابن خلوف : الديوان، ص 40.

<sup>46</sup> -الصيفة : الصفة والخلق، زين الزين: الجميل، طب: من التطيب وال مداواة، الأديّة: الأمراض.